

الحركة العلمية في مواسم الحج خلال القرن السادس الهجري

الدكتور سليمان بن عبدالغني مالكي *

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد :

فإن الحج^(١) ركن الإسلام المجمع عليه، وهو من أقدم العبادات التي عرفتھا الإنسانية منذ أن دعا إليه أبو الأنبياء إبراهيم صلوات الله عليه، وأقام له أول بيت وضع للناس على أساس التوحيد لله سبحانه، وكانت العرب تقوم بهذه الشعيرة فيما بين زمن إبراهيم وإسماعيل ورسالة ابنهما - مجدد التوحيد الخالص بعدهما - سيدنا محمد بن عبدالله عليه وعليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم .
وتاريخ الحج في الإسلام كان يشكل بأهميته عنصراً عظيماً من عناصر

(١) الحج هو : القصد ، رجل محجوج : مقصود ، ويكسر حجٌ ، حجة : المرة الواحدة ، أيضاً الحجة هي السنة وتجمع على حجج ، والقياس : فتح الحاء أي حجة ، وذو الحجة : شهر الحج ، والجمع ذوات الحجة ، ويضم الحاء هي : البرهان نقول : حاجه فحجة أي غلبه ، وفي المثل : (لجٌ فحجٌ) ، رجل مُحجَّاج أي : جدل ، والتحاج : التخاصم ، الحجاج والحجاج بفتح الحاء وكسرهما : العظم الذي ينبت عليه الحاجب ، والمحجة : جادة الطريق . الصحاح للجوهري : ج ١ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

- * بكالوريوس في الشريعة والدراسات الإسلامية من قسم التاريخ والحضارة الإسلامية ١٣٩٣هـ .
- ماجستير في التاريخ الإسلامي كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٨م .
- دكتوراه في التاريخ الإسلامي كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨١م .
- يعمل الآن وكيل عميد شؤون الطلاب بكلية التربية بالطائف .

التاريخ الإسلامي ، وكان الحجاج المسلمون في الفترة - موضوع البحث قبل عهدهم بالأسفار الجوية ، أو السفن البخارية الحديثة - يتجشمون جميع أنواع المصاعب في أبلغ معانيها من حيث سفرهم ، وتصدّرهم من أقاصي الدنيا إلى البلاد المقدسة في كل عام لحج بيت الله الحرام ، وزيارة مسجد سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، وهم تحت ظلال السفن الشراعية البدائية الضعيفة في البحر ، وعلى ظهور الإبل الهزيلة في البر ، ومنهم من كان يفضل المشي لأداء هذه الشعييرة على الأقدام حباً في مضاعفة مثوبته من الله تعالى على ما يقوم به من هذه العبادة العريقة في القدم ، ومنهم من كان يريد الحج وينشط إليه رغبة في طلب العلم على عالم مشهور انتشر صيته في كل مكان ، وجرى ذكره على كل لسان ، وسمع بقدومه الحج في سنة من السنين .

وهذه الرغبة كانت متوفرة من القديم وعبر السنين لمواسم الحج ؛ ولا سيما عند طلاب العلم النجباء الذين تعودوا الأسفار حباً لسماع وتحصيل معارفهم على عالم ، أو علماء في جميع الأنحاء ، وهؤلاء كانوا كثرة قدروا العلم في أهله حق قدره ، فأحبوه ، وأحبوا سماعه على أئمتهم المشهورين بنبوغهم ، وعلو قدرهم ، وكثرة معارفهم ، ودقة علومهم تدريساً وتحديثاً وتصنيفاً^(١) .

وليس أدل على حرص العالم ، أو المتعلم على العلم من أن بعضهم كان

(١) قديماً كان من هؤلاء سفيان بن عيينه الإمام الحجة قال عنه الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم أهل الحجاز ، ومن ألقابه : محدث الحرم ، وشيخ الإسلام ، أحد أئمته ، قال عنه الذهبي : كان خلق يحجون والباعث لهم لقي ابن عيينه ، فيزدحمون عليه أيام الحج ، انظر (تذكرة الحفاظ ص ٢٦٢ وما بعدها برقم ٢٤٩ ، - العقد الثمين ج ٤ ص ٥٩١ برقم ١٣١١) ، وأيضاً منهم محدث المدينة ، وعالمها ونزيل مكة ، يعقوب بن حميد بن كاسب ، (تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٤٦٦ برقم ٤٧٧) أيضاً منهم : محدث الجزيرة أحمد بن عبد الملك بن واقد (نفس المصدر ص ٤٦٣) وهؤلاء مع أنهم قبل الفترة موضوع هذا البحث إلا أن هذه الروح كانت سائدة في هذه الفترة وما بعدها ؛ لأن رغبة العلماء والمتعلمين في تحصيل معارفهم على نظائهم ، أو علمائهم المشهورين أيام مواسم الحج .

إذا فقد كتاباً، ولم يستطع الوصول إليه ، أو الحصول عليه نادى يوم الحج عليه، فيخبره من علم به ^(١) .

ولعل هذه الإشارة الخاطفة عن بعض أهمية منافع الحج قد ألمحت إلى ما سنتحدث عنه في عجالة هذا البحث ألا وهي دور الحج في تفاعل الحركة العلمية من خلال روادها العلماء الذين التقوا في أمكنة مشاعره المشهورة وأزمته شهوره المعلومة ، والتقاءاتهم هذه كانت في جميع تزامن في مكان قد لا يتوفر لبعضهم الاجتماع ببعض في غيره ^(٢) ولعل مشروعية الحج انطلقت من فرضية أدائه على من توفرت فيه شروطه إلي وجوب الاستفادة من منفعه الكثيرة التي تحقق ما تهفو إليه نفس المؤمن في دنياه، وتستهوئ فؤاده في أخراه، وهذا مدرك من قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ ^(٣) .

ومن يتدبر أوامر الله تعالى في هذه الأيام يلمح أول وهلة أنها للوجوب فما بالك بمن يقف على معانيها ... ؟ إنها تمتد ببلاغتها إلى مدارك أولى الألباب لتتناول كنه الحج وأسراره وفروضه وواجباته في مناطق مشاعره زيادة على منافع المسلمين التي تخص جميع مناحي شؤونهم الدينية والدنيوية السياسية، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وثمار هذه المنافع بلا شك كانت من وراء حكمة مشروعية الحج الذي كان بأيامه المحدودة، وأمكنته المحدودة

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٢ .

(٢) ما سقناه من تراجم تلك الفترة وغيرها من العقد الثمين للفاسي ، وانظر أيضاً مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧ ، ظهر الإسلام لأحمد أمين ج ١ ص ١٠٣٠ .

- العلاقات الحجازية للسليمان ص ٢٢٣ - بلاد الحجاز للباحث ص ١٨٦ .

(٣) الحج / ٢٨ .

بمثابة منتدى عام ضم جموع المسلمين من كل حذب، وصوب على اختلاف أجناسهم، وألوانهم، ولغاتهم، وقد اجتمعوا على رباط واحد وهو رباط الدين، وأنعم به من رباط وحدهم وجمع شملهم ؛ وعلمهم نبذ الفرقة وراء ظهورهم، وإحلال المودة والرحمة والعطف بين صفوفهم من حيث تحويل سلبيات أفكاره ، أو تصنيفاته إلى إيجابيات كانت في صالح الحركة العلمية نمواً وازدهاراً .

أيضاً كان من ثمار هذه اللقاءات أن تبادل كل حاج مع أخيه خبراته التي اكتسبها من حضارة بلاده التي عاش فيها ، وهذه الخبرات أنواعها شتى من علوم، أو فنون كانت أوقع وأكثر نفعاً للمستمع، أو الدارس إذا كان المسمع، أو المدرس ممن اشتهروا بنبوغهم فيها أداء ، أو تدريساً وتحديثاً ، والعلوم المناطة بالدراسة - يومئذ - كانت العلوم الدينية والعربية ، وأما العلوم العقلية ودراستها ، فقد قل المشتغلون بها في مواسم الحج وغيرها ^(١) .

فقليلاً ما يذكر المؤرخون أن عالماً درس الشعر، أو المنطق، أو الفلسفة من سائر العلوم العقلية ^(٢) بخلاف العلوم الدينية، أو العربية ومدارستها، فقد كان مألوفاً أن يردد المؤرخون ، ورجال كتب الوفيات دائماً في حديثهم عنها قائلين (وفيها توفي.. وكان شيخاً جليلاً وإماماً عالماً فاضلاً.. منعكفاً على العبادة.. والاشتغال بالله تعالى .. سمع من .. وتوفي.. - أو الإمام الزاهد نشأ بمكة .. ورحل في طلب الحديث .. وسمع من .. وكان شيخاً عالماً.. عارفاً ..) ^(٣) .

(١) ومن كان عالماً بها أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن بن وهبان ، فقد كان متبحراً في علوم كثيرة كالحساب والنجوم ، والفرائض والمنطق والفقه وغيرها، وأخيراً ختم أعماله بالزهد وقد ظل مقيماً بمكة حتى وفاته سنة ٥٨٥هـ ، بلاد الحجاز لعائشة بافاس ص ١١٤ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٤٦ ، مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٤ - ٤٨٨ .

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص ٣٤٣ ، - العلاقات الحجازية ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

وما أود التنويه إليه في هذا الصدد أن مدارس هذه المواد سواء كانت في حلقات علمية حامية ، أو مناظرات حادة دارت بين علماء أفذاذ مشهود لهم في عصرهم من أقرانهم ، وهم مذكورون ضمن مصنفات بعضهم كانوا يبحثون في هذه ، أو تلك مسائل عقائدية كثيراً ما كان يدور حولها الجدل ، وعلى الرغم من هذا وكثرة النقاش وطوله وشدة احتدامه لكن في النهاية كانوا يخرجون منها على وفاق لا شقاق اعتصاماً بحبل الله المتين وسنة نبيه الكريم ^(١) .

ولا حاجة بنا أن نؤكد أن الحلقات العلمية والمناظرات في الحرمين الشريفين خلال مواسم الحج كانت مستمرة لا تنقطع ، وهذا ليس بجديد على هذه الفترة بل كان قديماً منذ أن كان النبي ﷺ فيها معلماً .

وتألقَ الحرمين الشريفين في حلقاتهما العلمية برواد هذه الحركة وتباين معارفهم لم يكن من خلال من تحلقوا فيها من أشهر الدارسين والمدرسين ، والقارئ والمقرئين ، أو السامعين والمسمعين .

بل كان أيضاً من خلال توفير الكتب ونسخها وبخاصة في وقت لم تعرف فيه المطابع حينئذ ، ولولا عملية النسخ ما حفظت الكتب ولا بقيت حتى يومنا هذا ، ولا خرجت إلى رواد هذه الحركة محققة ، ومقارنة بأصلها .

ونشاط هؤلاء بلا شك قد أسهم في ازدهار هذه الحركة ومع أن المصادر قد أغفلت تواجدهم بأهم المراكز العلمية بمكة كالرباطات والمدارس إلا أننا لا نستبعد وجودهم فيها حيث توافرت فيهما الكتب ^(٢) ؛ ولأنهم أيضاً كانوا بالمسجد الحرام

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧ - ٤٩٨ .

(٢) كثرت الكتب بالرباطات منها رباط ربيع بأجناد مكة في سنة ٥٩٤هـ ، وهو منسوب إلى ربيع بن عبدالله المارواني ، أوقفه عن الملك الأفضل علي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب دمشق على الفقراء والمساكين من غرباء المسلمين، سكنه من العلماء والصالحين وطلبة ==

فيها شاهدتهم ابن جبير بجوار الكعبة الشريفة بوفرة أعدادهم عندما دخل البيت الكريم في حجه عام ٥٧٩هـ ، وعندما وصف الكعبة ، وما يتصل بجدرانها من مصاطب قال (... ويجلس فيها - أي المصاطب - النساخون ، والمقرئون ... والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم ..)^(١) .

أيضاً كانت هذه الحلقات تتأرجح زيادة ، أو كثرة تبعاً لشهرة الشيخ القائم على الدرس ، ولا سيما كبار العلماء المشهورين بنبوغهم وذيوخ صيتهم ، وكثيراً ما كان يدور البحث عنهم والاستدلال عليهم من طلبة العلم فإذا حجوا كانوا متحلقين في حلقاتهم رغبة في تحصيل معارفهم على أيديهم وسط الجو الروحي الذي أظلم بالحرمين الشريفين إضافة إلى مضاعفة الثواب من الله تعالى لكل عمل يؤدي فيهما .

ويهمنا في البداية أن نشير في إيجاز إلى تتبع هذه الحركة على طريق ركب الحجيج ، ومنازله لنرى إلى أي مدى كان نموها ، واثراؤها وزيادة معارفها من خلال مشاعل نورها من العلماء ، والخطباء والوعاظ الذين أسهموا في ازدهارها على طريق الحجاج ، ومحطات نزولهم ، ويطالعنا في هذا المقام شيخ

== العلم والمجاورين لكثرة ما يرد إليه من خيرات الطائف ، سكنه ابن بطوطة ، وأثنى عليه بأنه من أحسن الرباطات بمكة ، وازدهرت فيه الحركة العلمية لكثرة علمائه وطلابه وكتبه - ، رحلة ابن جبير ص ٩٩ ، رحلة ابن بطوطة ص ١٧٢ ، شفاء الغرام ج ١ ص ٣٣٥ ، العقد الثمين ج ١ ص ١٢١ ، ج ٦ ص ٢٧٦ ، اتحاف الوري ج ٢ ص ٥٦٤ حوادث سنة ٥٩٤هـ .

(١) رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة ص ٧٧ ، ومن اشتهر بنسخ الكتب العلمية في هذه الفترة هو عبدالله بن أحمد بن محمد الزبدي ، المتوفى بمكة سنة ٦٣١هـ ، تفقه ، وكتب الكثير بخطه ، وزيادة على علمه وصلاحه فقد أوقف كل كتبه بمكة ، انظر ترجمته بالعقد الثمين ج ٥ ص ١٠١ برقم ١٤٨٠ .

حران ^(١) - ت ٦٢٢ هـ - ومعلوم من ألقابه ، وصفاته العلمية العديدة أنه الفقيه فخر الدين أبو عبدالله محمد بن القاسم الحراني ، عالم مكة وخطيبها ، وواعظها الذي برع في معارف دينية شتى ، وبخاصة اشتغاله بمذهب الإمام أحمد حتى بَزَّ فيه أقرانه ، وجمع تفسيراً حافلاً في مجلدات كثيرة أهله لأن يكون في صدارة الفقهاء ، والتدريس والفتيا ، زيادة على إخلاصه في كثرة عظاته التي لا يمل عن التذكير بها في أوساط الحجيج ، وخطبه المشهورة المنسوبة إليه في طريق حجه ذهاباً وإياباً ، وفي عودته إلى بغداد جلس بباب بدر للوعظ بعد وفاة شيخه أبي الفرج الجوزي ^(٢) ، وبالجملية فقد تألفت دعوته كغيره من العلماء على منازل دروب الحاج زيادة على تواجده بين الحجاج في الحرمين وأمكنة المشاعر واعظاً ناصحاً ، مرشداً ^(٣) .

وإشارات المؤرخين في هذا الصدد كثيرة لا نستطيع في هذه العجالة أن نبسط عنهم قولاً ، ولا لمجموعهم عدداً ، لكنهم كانوا على الحركة ازدهاراً على دروبهم ، أو مناطق حجهم ، ولا أدل على ذلك من كثرة العلماء في حج موسم عام ٥٧٣ هـ . وقد اصطحبهم الوزير أبو الفرج محمد بن عبدالله بن المطفر حين طلب الحج من الخليفة المستضيئ ، وبعد أن أذن له خرج في جمع كبير من

(١) حران : هي مدينة مشهورة من جزيرة آقور ، وتقع على طريق الموصل ، والشام ، وسميت بهاران أخي إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه أول من بناها ، فعريت إلى حران بتشديد الراء ، وقيل : أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان ، قال المفسرون : إنها المرادة في قوله تعالى : {إني مهاجر إلى ربي} ، راجع معجم البلدان ج ٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) ستأتي ترجمته .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٥١ ، ١٠٩ ، وفي ص ١٠٩ ترجمته ، اتحاف الوري ج ٣ ص ٧ .

العلماء ، ومعه ستمائة جمل لحمل المنقطعين ، واصطحب معه جمعاً كبيراً من الزهاد ، وبیمار ستانا لعلاجهم ، وكان العلماء معه مصدر فتوى له ولحجاج موسم هذه السنة^(١) .

ونلاحظ أيضاً كثرة الفقهاء الذين خرجوا من غيانة^(٢) ، وانضموا إلى نظرائهم من حجاج موسم عام ٥٨٠ هـ ، واصطحبهم في هذا الموسم أبو العتيق أبو بكر بن الشيخ يحيى الغباني ، وكانوا ثلاثمائة فقيه يسايرونه بين أوساط الحجيج في ذهابهم وإيابهم فكانوا مشاعل نور وهداية^(٣) .

ولا يفوتنا أيضاً أن نذكر تجمعهم ، والتقاء وفودهم من مشرق العالم الإسلامي ومغربه قبل رمضان في مصر وسماعهم على كبار علمائهم ، وجهابذة فقهاء على كثرتهم وتباين معارفهم مما كان له تأثير في نمو هذه الحركة^(٤) .

وقد كان على مثال من ذكرنا ناصحاً ومرشداً ، وواعظاً بينهم على امتداد دروبهم ، ولا يمل من دعوته الشيخ موفق الدين عبدالله بن محمد بن أحمد بن قدامه المقدسي الحنبلي عالم المذهب ، وصاحب التصانيف المشهورة ، وله في المذهب اليد الطولي ، وتجلت معارفه فيما درج عليه غيره من ذكرنا ، فقد كان مرافقاً لركبهم في ذهابهم وإيابهم داعياً وموجهاً اختاره القاضي

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨١ - ٨٢ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٤٥ .

(٢) هي حصن بالأندلس من أعمال شنتيرة .

(٣) اتحاف الوری ج ٢ ص ٥٥٢ حوادث سنة ٥٨٠ هـ . - درر الفوائد ص ٧٠١ ، وفيها ذكر اسمه أبو

الحسن ، أبو بكر بن الشيخ يحيى الغباني .

(٤) الرحلة الحجازية للبتیوني ص ٣٧ - ٣٨ ، حسن الصفا والابتهاج ص ٣٦ - ٣٧ تحقيق لیلی

عبد اللطيف .

الفاضل لهذه المهمة في حجه عام ٥٧٤هـ من مصر ، وعاد إلى الشام ^(١) .
وفي العام الذي بعده حج أيضاً القاضي الفاضل - ت ٥٩٦هـ - لكنه
عاد إلى مصر عن طريق البحر ، فقام في الطريق أهوالاً ^(٢) .
أيضاً حج ابن جبير من مصر عن طريق عيذاب في عام ٥٧٩هـ ، وعاد
في صحبة الركب العراقي إلى بغداد ، وطواف في سائر البلاد ^(٣) .
وتظل الحركة العلمية مصاحبة لهم على امتداد طرقهم التي زحرت بما
عليها من منازل ضمت مساجد وغيرها من روافد ثقافية كانت معدة لاستقبالهم ،
وهذه المنازل كانت غاصة بعلماء الركب ، وأمير الركب ، وقد كان من أهم مهامه
أن يكون عالماً عاملاً ، ولا سيما بخطب الحج لأن وظيفته من أجل الوظائف
الدينية يومئذ ، أيضاً كان عليه أن يقف بالدليل والركب لأداء الصلوات الخمس
على أوقاتها ، ثم يأمر مناديه لحجاج ركه ، وملحقاته ، ويؤمهم من رجال العلم
إمام مستقل كعادة أمراء الحج على ذلك قديماً ^(٤) .

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٨ ، وفيها يشير ابن كثير إلى أنه حج في سنة ٥٧٢هـ حيث ذكر في
حوادث السنة قائلاً (وتأخر القاضي الفاضل بمصر لأجل الحج) ، الروضتين ج ٢ ص ٦ - ٧ ، وفيها
ذكر حجه سنة ٥٧٤هـ ، ص ١٤ ذكر حجته الثانية ، - موفق الدين المذكور : تفقه ، وأفتى ناظر ، وتبحر
في فنون كثيرة ، من مصنفاته : المغنى في شرح مختصر الحرق في عشرة مجلدات ، والشافعي في
مجلدين ، والمقنع للحفظ والروضة في أصول الفقه وغيرها من التصانيف المفيدة ، وفاته في يوم عيد
الفطر سنة ٦١٩هـ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٩ - ١٠٠ ، القاضي الفاضل هو : عبدالرحيم بن
علي بن محمد بن حسين اللخمي البيسانى ، ساد أهل البلاد حتى بغداد ، لم يكن له في زمانه نظير ،
كان وزيراً وصاحباً وجليساً ، وأنساً للسلطان الملك الناصر صلاح الدين بمصر ، وكان أعز عليه من
أهله وأولاده ، نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤ .

(٢) رحلته ، دار بيروت للطباعة - ١٣٩٩هـ ص ١٥٥ - ١٦١ بعد هذه الفترة حج ابن رشيد عن طريق
الركب الشامي وعاد إلى مصر عن طريق الساحل سنة ٦٨٤ - ٦٨٥هـ ، وبعده العبدري ، والتيجاني
وابن بطوطه وغيرهم .

(٤) درر الفوائد ج ١ تحقيق حمد الجاسر ص ٢٤٧ ، - حسن الصفا - تحقيق : ليلي عبداللطيف ص ٨٦ ،
- الحج والطواف لفؤاد عنقاوي ج ١ ص ١٢٧ .

ومهمة أمير الحج كانت عالقة بأذهان من يسعى إليها ، فقد كانت عليها المنافسة ، ومناظرة بعضهم لبعض فيما يريح الحجيج عموماً أمناً في طرقهم ، وعلماء في مناسكهم بُغْيَةً الحصول عليها لأنها ترفع من قدرهم ، وتزيد من شأنهم عزة وحماية ومنعة ^(١) .

ومن أعوان القاضي ^(٢) ويسمى قاضي المحمل وشرطه أيضاً أن يكون عالماً بالفقه إذ كان يتولى الفصل بين المتنازعين في الأمور الشرعية ، وتنصيبه لهذه المهمة الشريفة كانت من ولي الأمر ، وقيل : يختاره أمير الحاج من العرب ليحكم بين حجاج الركب حكماً شرعياً بعد أن تحال إليه الأمور الشرعية ، وعمله كان مستمراً في ذهابه وإيابه ^(٣) .

وإضافة لهذا الأمير ومعاونيه وموظفيه كان العلماء الرحالة الأدباء الذين كانوا في صحبة الحجاج ، وقد أتاحت لهم هذه الدروب فرصة الأخذ والعطاء ، وقد انفردوا أكثر من غيرهم بتسجيل مشاهداتهم في البلاد والمحطات التي مروا بها ، أو نزلوا فيها فكتبوا عن العمران ، وسجلوا مرئيتهم عن البيئات ، وأفاضوا في وصف هذه الطرق ، ولم يتركوا شاردة ، أو واردة عن منازلهم إلا

(١) درر الفوائد السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) هذه الوظيفة قديمة ، فقد ولي النبي ﷺ القضاء باليمن لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد ولاه أبو بكر رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والقضاء هو إحكام الشئ والفراغ منه وسمى القاضي قاضياً لأنه يقال: قضي بين الخصمين إذا فصل بينهما وفرغ ، وقيل القطع ، فيقال : قضي الشئ إذا قطعه ، وسمى بذلك لقطع الخصومه بالحكم ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ وحاشيتها ١ ، ٢ .

- الأعلام ج ٤ ص ١١٤ ، ج ٧ ص ٢٥٨ ، طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٧٩ ، نظام الحكم في الشريعة لظافر القاسمي ج ٢ ص ١١ ، درر الفوائد ج ١ ص ٢٨٣ .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣١٠ ، درر الفوائد ج ١ ص ٢٨٣ ، حسن الصفا ج ٢ ص ٣٥ ، الملامح الجغرافية ص ٩٠ - ٩١ .

سجلوها ضمن مؤلفاتهم التي أصبحت تراثاً خالداً لمن أتى بعدهم ؛ وعلى ضوئها استطاع الحجاج وغيرهم كالتجار أن يتغلبوا على مشاق هذه الرحلة ، أو التقليل من عنائها وتعبها وبخاصة أن هذه الرحلة كانت متكررة سنوياً ، أو على مدار السنة إن لم تكن للحج فهي للعمرة أو التجارة ، ولا ننسى أنها كانت ضرورية ، أو شبه إلزامية ، وبالنسبة لأولي العلم كانت أكثر فهم الذين كانوا يمكثون بها وقتاً طويلاً انطلاقاً منها ، أو عودة إليها .

وهؤلاء الرحالة وغيرهم ممن تعودوا الأسفار إلى أقصى الأقطار حباً في الالتقاء بأشهر علمائها كانوا يرون أن علومهم لا تكتمل إلا إذا رحلوا شرقاً ، أو غرباً لمناظرة العلماء أو التعمق في مصنفاتهم ؛ ولذلك كانوا أكثر من غيرهم نفعا لهذه الحركة .

وتأكيداً لما ذهبنا إليه يقول ابن خلدون بصدد تصدر المغاربة مع غيرهم من مصر ^(١) في حجهم إلى البلاد المقدسة : (...) وأما مالك فاخص بمذهبه أهل المغرب لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم .. فالبدواة كانت غالبية على أهل المغرب ، والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل .. ^(٢) .

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر بأن هذه الرحلة ودروبها قد فاقت كل ما يدور بخلد الإنسان نهضة في معارف شتى ، فقد التقى فيها علماء التفسير

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧ - ٤٩٨ .

(٢) ذكر ابن جبير وغيره أن "قوص" من أعمال الصعيد بمصر كانت ملتقى الحجاج والتجار من اليمن ، والهند ، والحبشة والمغاربة ، ومصر والإسكندرية وغيرهم كثير من بلاد العرب والعجم ، ومنها رأي من "قوص" - إلى عيذاب وإليها كانت عودتهم من الحج (رحلته طبعة بيروت ١٣٩٩ هـ ص ٤٠ - ٤١ ، حسن الصفا - تحقيق : ليلي عبداللطيف ص ٣٦ - ٣٧ بهوامشهما) .

والحديث ، والفقه ، والنحو والأدب ، وحتى من ضمتهم في جنباتها من التجار الذين امتهنوا الأسفار ، واشتغلوا فيها بالمرايحة العامة جرياً وراء العلم وتحصيله ، والمال وتوفيره ، فالتجارة أحياناً كانت بقصد العلم ، إذ لم يكن هناك مانع من أن يكون التاجر مقرئاً ، أو محدثاً ، أو فقيهاً ، فالدعوة الإسلامية في الأقطار الإسلامية المتفرقة كان من دعائها التجار ، أيضاً فالمعارف والأخبار والكتب - في عصر لم تعرف فيه الطباعة ولا غيرها كوقتنا الحاضر - كانت تنقل كلها ضمن قوافل ركبائهم ، أو سفنهم ، وهؤلاء - إضافة إلى كتاب الرحلات - كانوا مصدر نور ، ومعرفة لا سيما إذا علمنا أنهم كانوا إذا نزلوا محطة التف حولهم أهلها من التجار ، والعلماء ، فالتجار يتبادلون معهم التجارة بيعاً وشراءً ، والعلماء ينهلون من مشاربهم سماعاً عنهم ، وقراءة عليهم ، هذا وزيادة على مساهمتهم مع غيرهم في الوعظ والإرشاد لمن جهل أحكام هذه الشعيرة من الحجاج ، ومن خلال ذلك يتأكد لنا أن دروب الحاج على الرغم من قسوتها وامتدادها ، وقسوة الأعراب المحيطين بها ، وعلى منازلها - وبخاصة في فترة هذا البحث - إلا أنها كانت بمثابة جامعة طرق أبوابها العلماء والطلاب ، والتقوا في رحابها .

فأسهمت في تعميق ثقافات هؤلاء ، وأولئك ، وهذا تراثهم الماثل أمامنا الخالد بين أيدينا نستمد منه المادة العلمية التي نبني عليها مختلف دراستنا دينية ، أو أدبية ، أو تاريخية ، أو جغرافية ^(١) .

وإثر انتهاء هذه الرحلة إلى البلاد المقدسة نتوقف ملياً لنجد إجابات

(١) دروب الحجيج لسيد بكر ص ١٢ .

لعلامات استفهامية تدور بخلدنا ولماهية هذا البحث الداعية إلى الاختصار لم نشر إليها ؛ وتعظيماً للفائدة نقول : هل أثرت الكوارث المتتابعة التي أرادها الله بسبب عوائق على الحجاج المسلمين ، وقللت من حماسهم لحج بيت الله الكريم ... ؟ وحالت دون أن يحج عشرات الآلاف كل عام ... ؟ (كان ذلك يحصل لحجاج بيت الله الحرام ، والناس لا يمنعهم عنه مانع ، ولم يسمع أنهم انقطعوا في سنة من السنين ...) (٢) .

وسرعان ما ينسى الحاج أهوال ما وجد من صعاب وأهوال إذا ما تذكر أن هذا قدرك من قوله تعالى : ﴿وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ (٣) . وأن ثواب هجرته إلى الله تعالى هي خير له لأنها إليه سبحانه وتعالى وتنعكس عليه لتجدد حياته برؤية الكعبة التي ينسى أمامها جوعه ، وينسى غريه ، وينسى ظمأه بل وينسى أحبائه وأهله الذين خلفهم في أقاصي بلاد الدنيا ليهتف مع عشرات الآلاف من الحناجر الهاتفة (ليبك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ...) .

وبعد سماعه ومشاركته هذه التلبية التي تأخذ بالألباب وتثير المشاعر تصغر الدنيا أمامه وتهون ، وسرعان ما تطوى - بما فيها من متاعب وعقبات - ليبقى هناك أمر واحد فقط ، وشخص واحد فقط ، إنسان في ثوب أبيض ، وبقلب أبيض يطوف حول البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً (٤) .

(٢) درر الفوائد للجزيري ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٤هـ ص ٥٣٨ ، - الرحلة الحجازية للبتنوني ص ٢٣٨ ، - العلاقات الحجازية للسليمان ص ٧٦ .

(٣) سورة الحج : آية ٢٧ .

(٤) العلاقات الحجازية ص ٧٦ .

ازدهار الحركة العلمية أثناء مواسم الحج

بعد أن تتبعنا الحركة العلمية ، وعلاقتها بجموع الحجاج ، ومعاشيتها لهم في مناطق تجمعهم ، أو على طريق دروبهم نستطيع أيضاً أن نتبع خطاها أيام المواسم التي بلغت أوج ازدهارها على يد مشهوري علمائها ، وليس أدل على ذلك من تكرار حجاتهم التي بلغت لبعضهم أكثر من ستين حجة - كما سنري - ، ومن موقع شهرتهم العلمية ، وتصدرهم للفتيا لم يكن على المسلم إلا حجة واحدة لله تعالى في عمره إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وما زاد عند الأئمة فسنة ، ومن اجتهادات السنة أن من أدى فرضه ، ووجد سعة تكفي لإطعام الأكباد الجائعة أولى من ذهابه إلى بيت الله الحرام .

وعليه فكثر حجاتهم بعد الفريضة إنما كانت بقصد العلم ، وهو فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأفضليته مدركة من الكتاب والسنة ، ويحمل كل منهما في طياته أبلغ بيان على تصوير فضله ، وحاملي مشاعل نوره في نشره ، وتوجيه المسلمين لدراسته ، ورفع منار الإنسانية في كل مكان والدعوة إلى العمل والعرفان ، والآيات الكريمة ، وأحاديث الرسول عليه السلام كثيرة سردها يطول ، وقد تخرجنا عن مضمون قصدنا في هذا المضمار الذي يدعونا إلى الاختصار لكنها على أي حال - تصور فحوى ما اتصل بموضوعنا .

وإن هؤلاء النابغين إنما أرادوا الحج ، وقصدوا العلم وبذلك يكونون قد جمعوا بين الحسينين ، ولا سيما في هذا المقام الروحاني المنيف ولا حاجة بنا أن نؤكد بأن بعضهم إذا فقد كتاباً لم يستطع الوصول ، أو الحصول عليه كان يذهب إلى الحج منادياً عليه أيام الحج ، فيخبره من علم به ^(١) .

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٢ .

وحتى تبرز هذه الحركة في حجمها الحقيقي رأيت أن أتبع خطاها بذكر عدد من روادها أيام الحج ، ومن لم نذكرهم من نظرائهم لا يقلون شأنًا عنهم بل قد يتفوق بعضهم بعض من ذكرنا ، ولكن قد يجمع بينهم كثرة المساهمة في المسموعات والإسماع تدريساً وتحديثاً وتصنيفاً من هؤلاء :

- أحمد بن علي بن أحمد العلبي - أو العلني - الإمام المقرئ المحدث ومن خلال حجاته الكثيرة تبنت مشاركته من خلال ما بثه من معارفه بحرمي مكة والمدينة وأمكنة المشاعر ، واستفاد منه إخوانه الوافدون والمجاورون ، وأهالي الحرمين ، وطلبة العلم أيضاً بالرباطات والمدارس وغيرهما ، وتوفي بعد أن شهد عرفة محرماً في عشية الأربعاء يوم عرفة في أرض عرفة ، وحمل إلى مكة ، فطيف به ، ودفن يوم النحر بجوار قبر الفضيل بن عياض سنة ٥٥٣هـ حسب أمنيته في الدفن بجواره^(١) .

وإذا فقدت الحركة العلمية أحد مشاهيرها ، فقد بقي ازدهارها على يد إخوانه الأفاضل في العام نفسه الذي توفي فيه (العلبي) السابق وهو الحافظ أبو الفرج بن الجوزي البكري الحنبلي ، وهو الذي ذاع صيته وكثرت مواعظه في موسم الحج سنة ٥٥٣هـ ، وهو شيخ من مر معنا من قبل في هذا البحث وهو فخر الدين أبو عبدالله محمد بن خضر الحاراني الذي بث مسموعاته عن شيخه بعد موته ، وابن الجوزي تعددت أنشطته بالحرمين والمشاعر ، وتصديه لسائر البدع السائدة بالحرمين ، وما كان عليه المسلمون من خلق لا تتناسب مع هذا

(١) للمزيد راجع ترجمته في العقد الثمين ج ٣ ص ١٠٠ ، وفي هامشها ذكره (العلبي) ، - طبقات الحنابلة لابن رجب - طبعه حامد الفقي ج ١١ ص ١٠٤ فيها (العلبي) ، - شذرات الذهب ج ٤ ص ٦ ، فيها (العلبي) .

الدين ، و قدسية البلد الأمين ، وزيادة على ذلك ، فقد ذكر في كتابه صيد الخاطر: (حججت إلى بيت الله ، فامتلاً قلبي منه هيبة ، أو رهبة) - ويواصل فيقول: - (كنت انظر إليه - أي إلي البيت- تارة بعين الهيبة، فيشتد تعظيمي له، وتارة بعين لطف مالكة ، فأزداد بالبيت أنساً) - أي أنس العبد ببيت سيده، ثم يواصل حديثه عن أهل هذا البلد ، وهو في أشد العجب على سوء تصرفهم ، وقبح مسلكهم قائلاً : (فسبحان من أسكن حرمه مثل أولئك) . ، ولم ينس عبيد مكة في سلبهم لأموال الحجاج ^(١) .

أما يوم الجمعة في الحرم الشريف ، فقد رأي عجباً يستحق الذكر ، والتنويه على خطورته كدخيل علي عقيدتنا السمحاء التي حفظت على المساجد - ولا سيما الحرم الشريف - قدسيته بمنع التشويش على المتعبدين فيها . وذلك من خلال إشارته إلى من حملوا المقارع بين يدي الخطيب ، فأنكر هذه، وما سبقها، وأنذر بالوعيد لمن حاول الوقوع فيها، لأنها لا تتناسب و قدسية المكان ومتعبيه ^(٢) .

وتعظيماً للفائدة نلفت نظر القارئ ، ولعله معنا في أن الأذان إنما يعني الإعلام الشرعي لتنبيه الغافل وتذكير الساهي عن دخول وقت الصلاة وإقامتها وعلى الرغم من شروطه، وفضله في التخلص من الشيطان، وشره، أيضاً أهمية

(١) اتحاف الوري ج ٢ ص ٥٢٠ .

(٢) اتحاف الوري ج ٢ ص ٥١٩ - ٥٢٠ حوادث سنة ٥٥٣ هـ ، - درر الفوائد - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٨٤ هـ ص ٦٩٩ - ٧٠٠ ، ذكر محقق ابن فهد في مصدره السابق هامش (٣) في الصفحة الأخيرة ما أثبتته الجزيري . في كتابه .- درر الفوائد (مقال) وصوابها (مقارع) لأن القلاع ما ترمي به الحجارة ، أما المقارع فمفردها مقرعة ، وهي : خشبة ، أو جريدة على صفة مخصوصة تحدث صوتاً عندما يضرب بها .

المؤذن وعظيم مثوبته ^(١) إلا أن أربابها، وبخاصة في الحرم كانوا في الدعوة إليها على خلاف ذلك ، وتحولت عندهم فكانت أشبه بعادات منها إلى عبادات وهذه البدع وغيرها كانت سائدة بالحرم في هذه الفترة وغيرها وكيفية الآذان شاهدها ابن جبير في هذه الفترة وأثناء حجه سنة ٥٧٩هـ .

فمن أعلى قبة زمزم كانت ترسل من المؤذنين أحر الدعوات في استقبال أمير، أو سلطان من خلال ما أعد له مناسباً في هذا المقام بألفاظ مسجوعة، أو بشعر موزون قال عنه ابن جبير وغيره كالتجبيي، وابن بطوطة وغيرهما: (في إثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم رافعاً صوته بالدعاء للإمام العباس أحمد الناصر لدين الله، ثم للأمير، ثم لصلاح الدين وجهات مصر كلها ^(٢)).

وجاء هذا الدعاء مكرراً عند التجبيي فبعد حذف الناصر ومكث ذكر صاحب الديار المصرية ، وأمير مكة في وقته : هو أبو غني ^(٣) .

أيضاً كان المؤذنون يسيرون مع الخطيب إلى المنبر اثنين على جانبيه ، ورئيسهم أمامه ، وبعد اعتلائه المنبر كانوا بين يديه ، وبعد جلوسه ينادون بالآذان على لسان واحد ^(٤) .

ومشاهدة ابن جبير لهم كانت أيضاً في خطبة عيد الفطر ، وكانوا جلوساً دون الخطيب في أدراج المنبر يكبرون بتكبيره حتى يفرغ من خطبته ^(٥) .

(١) عن الآذان ومعناه اللغوي انظر الصحاح للجوهري ج ٥ ص ٢٠٦٨ - ٢٠٦٩ ، - لسان العرب لابن منظور ج ١٦ ص ١٤٩ - ١٥٣ ، وعن معناه الشرعي انظر ما ذكره العبدري تحت عنوان (مناظرات العلماء حول سبب فرار الشيطان من الآذان رحلته ص ٦٠ - ٦١ تحقيق : محمد الفاسي .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٨٦ ، دار الكتاب الكتاب اللبناني .

(٣) مستفاد الرحلة ص ٣٠٠ .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٨١ ، دار الكتاب اللبناني .

(٥) نفس المصدر ص ١١٩ . - رحلة ابن بطوطة ص ١٦٣ .

وبالطبع فهذه العادات كانت صدى لعادات أمصار إسلامية أخرى مجاورة منافسة على بلاد الحجاز في نواح شتى سياسياً ، واجتماعياً واقتصادياً ، ودينياً ، وتعود في مجملها إلى زمن سيطرة البويهيين على بغداد في القرن الرابع الهجري ، ثم تأكدت ، وزادت رسوخاً بعد أن ثبتها في الأذهان الفاطميون في مصر حتى صارت تقليداً متبعاً ، وسائداً ليس في بلاد الحجاز فحسب بل في سائر البلاد الإسلامية الأخرى ^(١) .

وما أُلحنا إليه كان مثار نقد من الحافظ ابن الجوزي وغيره من العلماء الذين تصدوا لإخمادها ، وإماتتها ، وهذا كان يتطلب من المتصدي لها أن يكون عالماً بها مستمراً بعمل متواصل من خلال هذه الحركة ليواجه ما أثير حول العقيدة ، وما أدخل عليها من أفكار غريبة هي منها براء ، ولذلك كانت تقام المناظرات بحدتها المتأججة ، والتي كانت تعايشهم بعد حجهم ، وكثيراً ما كان حجهم مرة ومرات إلا لإثارتها وجهاً لوجه بين مؤيديها ومعارضيه ، وكأنهم حين يقيمون مناظراتهم في مثل هذه الأمور في معركة فاصلة بين الحق والباطل لكنهم في النهاية كانوا على قلب واحد في محبة ووثام يجمعهم رباط الدين ، ومعتصمين بحبل الله المتين في بلد الله الكريم .

لأن هذه المناظرات الهادفة ، وما كان يثار فيها من نقد بناء لم تكن وليدة هذه الفترة بل كانت أيضاً قديمة ، فحين حج عثمان بن عفان سنة ٢٩ هـ ، ضرب فسطاطه في منى ، وأتم الصلاة فيها ، وفي عرفة ، فانتقده الناس ، لأنه لم يقصرها كالعادة ، وكان ذلك أول نقد - بمثل هذه الحالة - في الإسلام ^(٢) .

(١) رحلة ابن جبير ص ١١٢ ، - رحلة ابن بطوطة ص ١٦٢ ، - العلاقات الحجازية ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) تذاكر الحج (خاطرات ومشاهدات في الحج : عبدالعزيز صبري - المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ -

ونعود مع الحركة في تألقها بروادها في أرجاء الحرم ، فبعد ظاهرة الآذان انتقلت إلى تعدد الإمامة بالحرم ومجمل هذه الظاهرة أنها شكلت راباً في صرح الجماعة وترباطها ، فكان كل مذهب إمامه الخاص في مكانه الخاص بالحرم ، وقد نسي هؤلاء ، أولئك قدسية المكان ، والحكمة من مشروعية الجماعة ، ومن خلال إشارات المؤرخين في هذا الصدد نعلم أن أول الأئمة السنية في الحرم هو الإمام الشافعي لأنه المقدم من قبل أولى الأمر في مصر ، ولأن مذهبه كان أكثر انتشاراً في مصر والشام^(١) ومكانه خلف مقام إبراهيم عليه السلام ، وكان أول من يصلي إلا صلاة المغرب ، فإن الأئمة الأربعة يصلوها جميعاً في وقت واحد لضيق وقتها فيبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة ، ثم مؤذنو سائر الأئمة .

وترتب على هذه الكيفية بطلان الصلاة أحياناً لأن اجتماع التكبير فيها من كل جانب ، كان يحدث سهواً كثيراً لركوع جماعة بركوع أخرى ، أو يسلم أحدهم بغير سلام إمامه .

ثم بعد الشافعي يصلي المالكي تجاه الركن اليماني ، ثم الحنفي تجاه الميزاب ، ثم الحنبلي ، وصلاته مع صلاة المالكي في حين واحد ، وموضوع صلاته بين الحجر الأسود والركن اليماني .

في تلك الفترة ما كان بمصر وبلاد الشام من مذاهب كان سائداً في بلاد الحجاز ، ولقد حرص سلاطين الأيوبيون على انتشار المذهب الشافعي في أرجاء دولتهم ، يتلوه المذهب المالكي ، فالحنفي ، فالحنبلي ، ثم ازداد أنصار المذهب الحنفي بعد ذلك أيام العثمانيين لأنه صار المذهب الرسمي للدولة^(٢) .

(١) رحلة ابن بطوطة - دار التراث ، بيروت - ١٣٨٨هـ ص ١٥٥ .

(٢) انظر شفاء الغرام ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٦ ، - العلاقات الحجازية المصرية ص ١٤١ .

لكن أمراء الحرمين في تلك الفترة وما بعدها كانوا في مكة من الشيعة الزيدية ، وفي المدينة من الشيعة الإمامية ، ومشكلة اختلاف المذهب بين حكام الحجاز وسلاطين مصر قد كانت لها انعكاساتها السلبية على السنيين في مكة والمدينة ؛ لأن المناصب الدينية وبخاصة في المدينة كانت من الشيعة ، ولم يكن للسنيين أيام المنصور قلاوون إلا أن يطالبوا بسنية هذه المناصب ، فعين منهم قاضياً بالمدينة سنة ٦٨٢ هـ هو عمر بن أحمد بن الخضر بن ظافر بن طراد ، وهو أول أئمة المدينة وخطبائها وقضاتها ، ولكنه وجد من ويلات الشيعة ألواناً من العذاب ، ولكن الأمر والنهي والسلطة في أغلب الأمور كانت للشيعة ، ومن لا ذإ إليهم من السنيين ^(١) .

وشاهد ابن جببر هذه المذاهب بالحرم الشريف وقال : (وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع قد تفرقوا على مذاهب شتى - ثم قال - وللحرم أربعة أئمة سنية ، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية ، وأشرف أهل هذه البلدة على مذهبهم ، وهم روافض سبابون ^(٢)) .

أما إمام الزيدية الخامس بالحرم ، فكان موقفه بين الركنين اليمانيين وُصِّلَى بِطائفة

من الروافض أي الزيدية الشيعية ، ومعهم أمير مكة وحواشيه ، وقرابته ، وهم لا يُجَمَّعون أي لا يصلون يوم الجمعة بالحرم ويصلون الظهر أربعاً ، وعلماء مكة يعلمون هذه البدعة ، وغيرها - كالأذان وغيره - ولا يستطيعون تغييرهم لأن أمراء

(١) التحفة اللطيفة ج ١ ص ٢٨ ، ج ٢ ص ٣٢٨ - ٣٣١ .

(٢) رحلة ابن جببر - ص ٥٤ ، ٧٨ .

مكة على مذهبهم وعن صلاتهم المغرب، فكان بعد فراغ الأئمة الأربعة من صلاتهم^(١).
وعن حكم صلاة الأئمة الأربعة على هذه الكيفية، فقد أفتى علماء
المواسم في الحج ، في عامي ٥٥٠ - ٥٥١ هـ ، ففي موسم حج العام الأول حج
الإمام أبو القاسم عبدالرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي بشتى معارفه ،
وزيادة على تواجده بين الحجاج واعظاً ، ومفتياً ، ورئيساً لحلقاته العلمية
الزاخرة بالعلم والمتعلم ، وتصدره للفتيا ، فقد أفتى بمنع الصلاة لأئمة متعددة ،
أو جماعات مرتبة بحرم الله الشريف ، ويعدم جوازها على مذاهب الأئمة
الأربعة ، وقد ذكر ابن فهد هذا الخبر تحت (فتوى بمنع تعدد الجماعة)^(٢) .
وفي السنة التي بعدها - أي موسم حج ٥٥١ هـ - طالعنا المصادر بمن
تألقوا بين أوساط الحجيج وعظماً ونصحاً وإرشاداً ، وتصدرهم كسابقهم في منع
هذه الصلاة ، وقد ذكرهم ابن فهد : (فقال : وفيها - ٥٥١ هـ - حضر الموسم
جماعة من الشافعية، والحنفية والمالكية منهم جعدة العطار الشافعي، والشريف
الغزنوي الحنفي ، وعمر المقدسي المالكي ، وأنكروا صلاة الأئمة الأربعة في
صلاة المغرب ، في وقت واحد^(٣) .

(١) راجع رحلة ابن جبير - دار الكتاب اللبناني ص ٨٤. ٢٨٥ ، ٨٣ - ٨٥ . - مستفاد الرحلة والاعترا ب
للتجيب ص ٢٩٧ ، وما بعدها ، - رحلة ابن بطوطة ص ١٥٥ ، - شفاء الغرام ج ١ ص ٢٤٤ - الجامع
اللطيف لابن ظهيرة ص ١٣٢ ، وقد ذكر التجيب في مصدره السابق ص ٢٩٦ سبب تعدد الجماعة في
الحرم بأنها حدثت بعد أن تغلب الديلمي - لم يذكر اسمه - على العراق ، فهاجر علماء الحجاز
والعراق إلى غيرهما من البلدان ، فظل الناس في الحرم أشتاتاً لا إمام لهم ، ففرع أهل كل مذهب
في الحرم إلى رجل منهم يكون قدوتهم في الصلاة فمضي العمل على ذلك من وقتئذ ، وفي صفحة
٢٩١ ذكر أن الزيدية هم الذين قالوا بإمامة زيد بن علي بن الحسين في وقته ، وهم روافض لأنهم
رفضوه بعد ذلك لأنهم يرون الخروج مع كل من خرج من شيعة ولد فاطمة ، رضي الله عنها -

(٢) اتحاف الوري ج ٢ ص ٥١٦ حوادث سنة ٥٥٠ هـ وها مشها رقم ٣ -

(٣) رحلة ابن جبير دار لكتاب اللبناني ص ٨٥ . - اتحاف الوري ج ٢ ص ٥١٧ - ٥٢٨ حوادث سنة
٥٥١ هـ ، - درر الفوائد - المطبعة السلفية - القاهرة ص ٢٦١ .

وقد ذكر الفاسي أن بعض الناس استفتى في ذلك بعض علماء الإسكندرية ، فأفتوا بخلاف مارآه الحباب - السابق الذكر في موسم حج عام ٥٥٠هـ - ، ومن أفتى بذلك : شداد بن المقدم ، وعبد السلام بن عتيق ، والشيخ أبو الطاهر بن عوف ، ولما وقف ابن الحباب على فتاويهم كان رده عليهم بمنطق شاهد له بقوة الحفظ ودقة الاستنتاج ، وأشياء أخرى ذكرها الفاسي بأنها : (أشياء كثيرة حسنة ، ونقل إنكار ذلك عن جماعة - أي المذكورون في موسم حج ٥٥١هـ - آنفاً - وذكر ابن الحباب أن أبا بكر الطوسي ، ويحيى الزياتي شيخا شداد بن المقدم لم يصليا خلف إمام المالكية بالحرم الشريف ركعة - ثم ذكر - ولا شيء أقبح من جهل الإنسان بحال شيخه)^(١) .

ومن خلال ما جرى بين هؤلاء يؤكد تفاعل العلماء بكثرة اطلاعهم ، وقوة استنتاجهم فيما يقيمونه من أدلة ، براهين وحجج ، وبالطبع فما كان هذا ليتم إلا بكثرة رجوعهم إلى مصنفات المعتدلين ، أو معرفة من كانوا قبلهم في مثل هذه المواقف أصحاب المناظرات الهادفة إلى الحقيقة والصواب ، وفتوى ابن الحباب وغيره قد أيقظت روح المناقشة ، والتمحيص والتحقيق بين عمالقة هذا الفن ، ورواده إلى أن ظهرت الحقيقة واضحة ، وبعد أن تألفت الحركة العلمية على يد بعض روادها الأكفاء .

ولا يفوتنا في هذا الصدد أيضاً أن ننوه إلى دور القضاة وفعاليتهم الملحوظة التي كانت مع الحركة العلمية ازدهاراً في كل مناسبة ويحضرنا في هذا المقام مشاهدة ابن جبير - أثناء حجه في سنة ٥٧٩هـ - مظاهر الاحتفال المقام بالحرم الشريف بمناسبة ختم القرآن في تراويح كل وتر من ليالي العشر

(١) شفاء الغرام ج ١ ص ٢٤٥ .

الأواخر من رمضان وأفاض ابن جبير في وصف هذا الاحتفال الديني البهيج وغيره من بعده كابن بطوطة ، وابن رُشيد الفهري والتجيبى وغيرهم .

وعلى الرغم من البعد الزمني بينهم وبين ابن جبير الذي ينوف عن مائة سنة إلا أن وصفهم كان متقارباً ومتوافقاً إلى حد بعيد مع ابن جبير في فترة هذا البحث ، ومفاد وصفه حضور القاضي ختم القرآن - المشار إليه بالحرم - وفي صحبته كبار علماء مكة يشاركونه عظاته نصحاً ، وإرشاداً ، وتحديثاً .

ففي هذه المناسبة ، وما يعقبها استعداد لمواسم الحج ، وصلاته العشاء الآخرة إماماً بالحضور في ليلة السابع والعشرين من رمضان ، وقد زاد من نشاطه في هذه المناسبة حين ضم إلى نحو الحركة العلمية براعم مستقبلها من حفظة القرآن الكريم من أبناء مكة الصبيان ، وقد خصص لكل منهم ليلة من ليالي هذا لعشر ، يؤم الناس في ختمه للقرآن ، ويلقى بعد إمامته ما أعده من خطبة بليغة مناسبة بل ومؤثرة تأخذ بالباب السامعين ، وتحضهم ، وتثير انتباههم شوقاً إلى متابعة حفظ القرآن ، وتحفيزاً لأبنائهم من بعدهم ، وهؤلاء بلا شك كانوا في مستقبل هذه الحركة هداة مهتدين ، وألسنة ناطقة من فوق منابرها يبشرون معارفها ، ويذيعون أخبارها ^(١) .

وكما كانت مشاركة القاضي في المناسبة الباعثة على بهجة النفوس كانت أيضاً مع الشدائد ، وشارك فيها بعظاته ، وفيض معلوماته ، وقام بتذكير الناس وتعليمهم كما حدث ذلك في صلاة الاستسقاء حين ندب الناس لهذه الصلاة ، وتناولت خطبته ما أدمع عيون الحاضرين ^(٢) .

(١) رحلة ابن جبير - ص ١٢٧ - ١٢٨ ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) ابن جبير نفس المصدر ص ١٣٨ - ١٣٩ ، وقد شاهد هذه المظاهر ابن جبير في حج ٥٧٩ هـ .

وأفادت المصادر عن مواصلة مسيرة الحركة العلمية من خلال مشاعل نورها القضاة ، والعلماء الذين كانوا معها أيام مواسم الحج على امتداد هذه الفترة دُعاة حق ومشاعل نور وهداية بين أوساط الحجاج ، وألسنة بليغة لنشر صنوف معارفهم ، وأسرار علومهم ، وكثرة مصنفاتهم التي ضم كل منها في جنباته أكثر من تخصص ، أو فن وظهر ذلك جلياً من خلال تراجم العلماء التي أظهرت تنوع معارفهم ، ومستوى أنشطتهم التي مارسوها مع شغلهم لمنصب القضاء والفتيا والإمامة .

فمن علماء المواسم المشاركين في ازدهار هذه الحركة ، وكانوا قضاة للحرمين بالإضافة إلى الفتوى فيهما أحياناً محمد بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين - ت ٥٤٥هـ بمكة - (١) .

وأخوه عبدالرحمن - ت ٥٥٤هـ - (٢) وابنه من بعده وهو أحمد بن عبدالرحمن ، وكان كأبيه وعمه السابقين في نشاطه وقضاء الحرمين الشريفين - ت ٥٥٧هـ - (٣) ، وبعده أخوه يحيى بن عبدالرحمن في قضاء مكة فقط .

ونضيف إلى ما أفاد به الفاسي : أنه وفد إلى السلطان صلاح الدين بن يوسف صاحب مصر ، وقف عليه وعلى ذريته بلدة بديار مصر ، وكان حياً سنة ٥٩٥هـ (٤) وقاضياً بمكة وخطيباً بحرما هو : محمد بن جعفر بن أحمد بن عبدالعزيز العباس ، وألقابه عديدة منها : عماد الدين ، وفخر الدين ، كنيته

(١) العقد الثمين ج ٢ ص ١٥٢ ترجمته رقم ٣١٠ - .

(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٣٩٢ - ٣٩٤ وفيها ترجمته .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٧٧ برقم ٥٨٠ - ، تحاف الوري ج ٢ ص ٥٢٦ .

(٤) نفس المصدر ج ٧ ص ٤٣٨ - ٤٣٩ برقم ٢٧٠٠ - ، تحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٠ ، ولم يذكر ابن فهد أو الفاس اسم هذه البلدة .

أبو الحسن البغدادي ومن خلال ما أفاد به الفاسي يتبين كثرة مسموعاته على مشهوري علماء المواسم، والبلاد، ومن نبوغه في كثرة مسموعاته على مشهوري علماء المواسم، والبلاد، ومن نبوغه في كثرة مسموعاته، فقد أجازته علماء المواسم كأبي القاسم بن الحصين، والقاضي أبو بكر الأنصاري والشروطي وجماعة، وإسماعاته كثيرة أيضاً وتآلق نجمه في سماء الحركة العلمية أيام مواسم الحج، وفي كل منطقة تخص جموع المسلمين إضافة إلى الحرم الشريف وخطابته فيه مع كثرة جموع الوافدين، وقد أفاد الفاسي بأن المنذري أثناء حجه سنة ٥٧٩هـ وجد عماد الدين المذكور آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مُحِقّاً للحق مبطلاً للباطل مدققاً في حكمه وقضائه، وذكره بقوله: (... وخطب في أيام الموسم، وصلى بنا الجمعة، وكنت في هذه السنة حاجاً...) ورجع إلى بغداد وتولى قضاة القضاة سنة ٥٨٤هـ بعد عزل قاضي القضاة أبو طالب علي بن علي البخاري في نفس السنة^(١).

أيضاً فمن كانت مواعظه أكثر شمولاً فضلاً عن دقة فتواه، وحكمة استنباطه الأحكام الشرعية درأً لخلاف قد يقع بين جموع الحجيج ويضيع عليهم حجهم، وفند فتواه بما أرضى الجميع، فأثنوا عليه وشكروه ولنستمع إلى هذه من خلال ما رواه ابن جبير عن هذا القاضي في قوله: (يا للعجب لو أن أحدهم يشهد برؤية الشمس تحت ظلال الغيم الكثيف النسج لما قبلته، فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين).

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٥، التكملة للمنذري ج ٤ ص ٦٠، برقم ٤٨٣، العقد الثمين ج ١ ص ٤٣٧ - ٤٣٩ برقم ١٢٧ وفيها ترجمته، - اتحاف الوري ج ٢ ص ٥٦٥.

وقد أفاض ابن جبير في كثرة عظاته وتوضيحه للناس ما نصت عليه الشريعة ، وما ذكره أئمة المسلمين ، وقد شمل ذلك بزواجه لمن شهدوا شهادات باطلة في رؤية هلال ذلك الحجة وأشار إلى أن مَنْ شهدوا هذه الشهادة كانت من وراء حرصهم على أن تكون الوقفة يوم الجمعة ، وبعد أن ردهم ، وجرحَ شهادتهم ، وفضح ما ذهبوا إليه حسم الخلاف من خلال ما أخبر به ابن جبير حين قال (الصعود إلى عرفة ^(١) صبيحة يوم الجمعة ، فيقفوا عشية بها ، ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده ، ويبيتوا ليلة الأحد بمزدلفة ، فإن كانت الوقفة يوم الجمعة ، فما عليهم في تأخير المبيت بمزدلفة بأس ، فهو جائر عند أئمة المسلمين ، وإن كانت يوم السبت فيها ونعمت ، أما أن يقع القطع بها يوم الجمعة فتغريز بالمسلمين ، وإفساد لمناسكهم ، لأن الوقفة يوم التروية عند الأئمة غير جائزة ، كما أنها عندهم جائزة يوم النحر ، فشكر جميع مَنْ حضر للقاضي هذا المنزع من التحقيق ، ودعوا له ... وانصرفوا عن سلا) ^(٢) .

وبعد أن أسعفتنا الحركة في تحديد يوم عرفة - بكفاءة بعض روادها الأفاضال الذين كان لهم دورهم المميز في استنباط الأحكام المستنيرة التي أبقت على الحجاج حجهم ، وبعد أن حولت الشك إلى يقين - ، استطاعت أيضاً أن

(١) الاسم جمع ، والمسمى مفرد ، وهي اسم لموضع أي جبل مشرف على بطن عُرته ، وتسميتها بعرفة قيل: إن جبرائيل عليه السلام عرّف إبراهيم عليه السلام المناسك ، فلما وقف بها قال : أعرفت .. ؟ قال : نعم ، وقيل : إن آدم وحواء تعارفا بها بعد نزولهما من الجنة ، وقيل : إن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف .

(٢) ابن جبير : رحلة - بيروت - ١٣٩٩هـ ص ١٤٦ - ١٤٧ ، وفي الصفحة الأولى لم يذكر ابن جبير اسم القاضي ، لكنه ذكر عنه عبارة : (وكان لهذا القاضي جمال الدين) .

تواصل ازدهارها من خلال الولاية الثانية على إقامة الحج في أمكنة الحج ، وحتى لا يلتبس القارئ ، ننوه إلى أن ولاية الحج ضربان ^(١) .

الأولى سياسية ويمثلها أمير الحج بشروطها التي منها علمه وأشرنا إليها مع ازدهار الحركة على الدروب ، وبعد وصول الحجيج إلى مكة تتأرجح ولاية أمير الحج على ركبه ، فترتفع عمّن أثر البقاء ، وتبقي على من أثر العودة معه ^(٢) .

والثانية : من شروطها علمه بمناسك الحج ، وأحكامه ، عارفاً بمواقيته وأيامه ، ومدة ولايته لا تزيد على سبعة أيام بدءاً من صلاة الظهر في اليوم السابع من ذي الحجة ، وانتهاءً باليوم الثالث عشر منه ، وبعد هذا اليوم يعود إلى موقعه كأحد الرعية أولاً ، وليس له بعد ذلك من أمر الولاية شيء ^(٣) .

ونشاط هذا الولي كان من خلال خمسة أحكام هي :

أولاً - إعلام الناس بوقت إحرامهم للحج ، والخروج إلى مشاعرهم .

ثانياً - ترتيبهم للمناسك .

ثالثاً - تقدير الموقف بمقامه فيها ، أو سيره عنها .

رابعاً - اتباعه للأحكام المشروعة فيها ، والتأمين على أديته .

خامساً - إمامتهم في الصلوات التي شرعت خطب الحج فيها ، وإطالة

مواظمه في هذه الخطب ، وهُنَّ أربع :

الأولي : أن يصلي بهم الظهر ، ويخطب بعدها في اليوم السابع بمكة ،

(١) الولاية على الإيمان واجبة ، فالؤمنون بعضهم أولياء بعض ، والولي ، أو الوالي من أسماؤه تعالى ، والمولى في الدين هو الولي ، فالله مولى الذين آمنوا أي وليهم ، والكافرون لا مولى لهم أي لا ولي لهم ، وكل من يلي أمر واحد ، فهو وليه ، للمزيد راجع لسان العرب ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، الصحاح للجوهري ج ٦ ص ٢٥٢٨ - ٢٥٣١ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٤ ، - درر الفوائد للجزيري ج ١ ، تحقيق : حمد الجاسر ص ٢٢٩ .

ويعلمهم بأن مسيرهم غداً إلى منى .. وبعد مبيتهم بمنى وبعد طلوع الشمس يأخذ سيره إلى عرفة ، وفيها يخطب بهم الخطبة الثانية قبل صلاتي الظهر والعصر، وهذه الخطبة عادة كانت تطول - كوقتنا الحاضر - ؛ لأنها تجمع تقريباً بين واجبات الحج ومحظوراته ، وواجباته وما إلى ذلك ، وهذه الخطبة قد أسهب فيها الماوردي أكثر من الخطب الأربع ؛ ومفادها عظات حسب ما ذكرنا إضافة إلى تذكيرهم بحدود عرفه ، وأن ما حولها ليس منها كبطن عرنه ، ويستمر بين حجاج ركبه متحركاً بمواعظه ، مُسدياً نصائحه في كل أمكنة المشاعر ، ثم يركبه إلى المبيت بمزدلفة، وإلى منى ، ومكة للطواف والسعي ، ثم يركبه إلى منى لصلاتي الظهر والعصر، والخطبة الثالثة مُذكراً بما بقي من المناسك، ومُبيناً إحلالهم الأول والثاني، وما يحلُّ لهم من محظورات الإحرام في كليهما، ويبيت بمنى ليلته ، ويرمي مع ركبه من غده بعد الزوال الجمار الثلاث كل منها بسبع حصيات ، ويبيت ليلته الثالثة ، ويسلك في غده ما سلكه في أمسه إلا أنه يخطب بعد الصلاة الخطبة الرابعة والأخيرة من خطب الحج^(١) .

ويذكر الناس فيها إلى أن لهم نفرتين خيرهم الله فيها بقوله تعالى : ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعملوا أنكم إليه تحشرون﴾^(٢) .
لكن كان عليه أن يبيت وينفر النفر الثاني ، واليوم الثالث عشر تنقضي ولايته على الحج^(٣) .

(١) الأحكام السلطانية ص ١٢٤ - ١٢٥ ، - عدة المسافر ، وعمدة الحاج والزائر لعبدالله بن أحمد بن عبدالله باسودان ص ٩٢ ، ٩٣ . - الحج إلى بيت الله الحرام لعبدالحليم محمود ص ٩٥ ، ١٠٨ .

(٢) البقرة : آية ٢٠٣ .

(٣) الأحكام السلطانية ص ١٢٦ - ١٢٧ ، الحج إلى بيت الله الحرام ص ٩٥ ، ١٠٨ ، - عدة المسافر الحاج والزائر ص ٩٢ - ٩٣ .

وتستمر الحركة لتناقش بعض أعمال السابق بعد أن عاجلت أخطاء من سبقوه، وعالم تلك الفترة هو سليمان بن خليل العسقلاني ، مكنى بأبي الربيع، وملقب بنجم الدين، ومن ترجمته سيقت المناظرة حول الخطبة قبل رمي الجمرات، النفر من منى ثاني يوم النحر ، فعن الأولى عاب صاحب الترجمة على الخطباء قبل الرمي ، يقول الفاسي : (كان مفتي الحرمين سليمان بن خليل يَعِيبُ على الخطباء بمنى الخطبة قبل الرمي ، فلما ولى هو الخطابة أقام السنة) ، وعن الثانية دارت المناظرة بين صاحب الترجمة ومشهوري العلماء على النحو التالي: من نفر من منى ثاني يوم النحر عليه دم وثلاثي دم وقال بعضهم : دُم وثلاث دم، وأفتى بعض القضاة، وأقطاب العلماء بأن عليه دمين كمذهب مالك، وصاحب الترجمة أفتى بدم ومُدٌّ، ذكر الفاسي : (ومن عرّفته بِفُتْيَاهُ استحسّنه وإن كان يُفتي بغيره، وأفتى قاضٍ آخر بأنه عاصٍ لا يزيل إثمهُ إلا التوبة .

وذكر الفاسي عن سليمان بن خليل - صاحب الترجمة - الكثير نذكر من مفاده أنه حدث بالكثير ، ودرس وأفتى وألف كتاباً مفيداً في المناسك رآه الفاسي في مجلدين ، وأنه كان عليه مدار الفُتيا أيام المواسم ^(١) .

ومن نالت الحركة العلمية على يديه تقدمها أيام الحج عمر بن عبدالله السريّ الذي حضر في عام ٥٥٥هـ حاجاً ، واستفاد منه الوافدون إفتاءً ووعظاً ، وتوفي في عام حجه المذكور ^(٢) .

(١) ترجمته في العقد الثمين ج ٤ ص ٦٠٣ - ٦٠٥ برقم ١٣٢١ ، - العبر في خبر من عبر للذهبي ج ٣ ص ٣٠٢ ، - شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٠٥ ، - اتحاف الوري ج ٣ ص ٨٨ .

(٢) للمزيد راجع طبقات فقهاء اليمن لابن سمره ص ١٩٦ ذكر الفاسي بعد اسم المذكور (الرّميّ اليمني) فهو يمني يقرب مخالف جعفر باليمن ، العقد الثمين ج ٦ ص ٣٠٩ ترجمة رقم ٣٠٦٩ ، اتحاف الوري ج ٢ ص ٥٢٣ .

ومن دخل إلى مكة حاجاً سنة ٥٧٠هـ ، وأقام بها إلى وفاته مشغولاً بالعلم وأهله هو : أبو علي ناصر بن عبدالله المصري ، مسموعاته كثيرة ، وإسماعاته أكثر لغيره ، نشاطه العلمي كان متألقاً بين الأهلين ، وأوساط المجاورين ، وحجاج بيت الله الكريم على مدى أكثر من ستين وقفة بعرفات^(١).

وما أن حل موسم عام ٥٧٩هـ إلا وقد حل معه بشرى عوامل ازدهار الحركة العلمية ، وزاد من تأكيد أواصرها الحميمة بجموع الحجاج الذين تفاعلوا معها أخذاً وعطاء ، فاستفادوا من حضارات بعضهم فهداهم الصراط المستقيم ، وأعانهم على نشره بين سائر المسلمين ، وكان من بين كثرتهم الأمراء ، وأولادهم ، وكبار المحسنين ، وأهل السرو اليمينين ، والأعاجم الخرسانيين ، والنساء المعروفات بالخواتين^(٢).

وكل قد ساعد في نمو هذه الحركة بشكل ، أو بآخر فكرياً كان ، أو اقتصادياً عن طريق ما حملوه معهم من صدقات ، ومساعدات عينيه ، أو نقدية لا حصر لها ، والتي زادت عن حاجة الجميع عاماً^(٣).

وقد تبادل العلماء مع وفرتهم من العرب والعجم المدارس في كل مكان بمكة والمدينة ، والمشاعر المقدسة في مجالس ، أو حلقات ، أو مناظرات حامية تناولت مسائل تخص العقيدة .

وقد حفلت المصادر ولا سيما ابن جبير الذي توسع في سرد ما ذكرنا ،

(١) العقد الثمين ج ٧ ص ٣١٦ - ٣١٧ برقم ٢٥٦٦ ، ج ١ ص ١١٨ ، شفاء الغرام ج ١ ص ٣٣٠ - انحف الوري ج ٢ ص ٣٣٥ حوادث سنة ٥٧٠هـ .

(٢) رحلة ابن جبير - بيروت ١٣٩٩ ص ١١٠ ، ١٢٠ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، وما بعدها .

(٣) رحلة ابن جبير ص ١٤٠ .

وأمتعنا بوصف شيق لجموعهم على مختلف هيئاتهم الاجتماعية ، المادية والعلمية من وقع مسابرة معهم الرحلة خطوة خطوة ، فقد حج هذا العام من مصر إلى مكة ، ثم إلى المدينة ، ثم عودته وخلالها وصف الطريق ، ومنازله بأسلوب أدبي رصين ، وعبارات مسجوعة تأخذ بلب السامع ، أو القارئ ، وقد عايش هذه الرحلة بكل مشاعره ، وأحاسيسه بعد أن ذكر أولئك الذين حجوا ، وأسعدوا الحياة العلمية قولاً ، وعملاً ، وقد ساعدت مشاهدات ابن جبير على استمرارية الحياة العلمية بقصد ، أو بغير قصد أحياناً .

وقد ذكر ابن جبير في هذا الصدد قدوم طغتكين بن أيوب الملقب بالملك العزيز صاحب اليمن ، أخي السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب صاحب مصر ، وقد قدم من مصر إلى المدينة ، ثم إلى مكة ، وهو في طريقه إلى اليمن ، وكان في صحبته جماعة من حجاج مصر اغتناماً لطريق توفر فيه الأمانات والبر والإحسان مما أعطى الحياة العلمية متنفساً جديداً ، فأدلى العلماء بمختلف علومهم ، ونهل الطلاب من مواردهم تحت ظلال أمن واستقرار اقتصادي من خلال ما أغدق عليهم من خيرات ؛ وعلى أمير مكة مكث بن عيسى من نفقات سخية ، وخلعاً ديبقية رفعت من معنوياته ، ومع الاستقرار غص المسجد بالحجاج ، وانتعشت المعارف^(١) وسط الحلقات ، فمع الاستقرار ازدهار ، ومع عدمه انهيار .

وتوالي الحركة العلمية ازدهارها اقتصادياً وعلمياً من إمدادات بعض

(١) رحلة ابن جبير - بيروت ١٣٩٩ ص ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٤٨ ، - العقد الثمين ج ٥ ص ٦٢ برقم ٤٤٣٣ وفيها ترجمة طغتكين ، - تحاف الوري ج ٢ ص ٥٤٥ - ٥٤٦ ، غاية المرام ج ١ ص ٤٥٧ ، درر الفوائد حوادث سنة ٥٧٩ هـ .

أفرادها الحجاج، فالميرة من السرو اليميني^(١) أرغدت من بالموسم، وأهالي الحرمين عاماً كاملاً، وهؤلاء كانوا عرباً فصحاء، كان عبدالله بن عمر - رضي الله عنه - يحبهم ويدخل معهم في طوافهم تبركاً بأدعيتهم، وتتجلى فصاحتهم حين شاهد ابن جبير منهم صبياً مع أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب، وسورة الإخلاص، لنستمع هذه المناقشة من ابن جبير: (فكان - أي الحاج المعلم - يقول له: (قل هو الله أحد)، فيقول الصبي: (هو الله أحد)، فيعيد عليه المعلم، فيقول له: (ألم ترني بأن أقول: هو الله أحد؟ قد قلت)، فكابد في تلقينه مشقة، وبعد لأمي ما علقت بلسانه، وكان يقول له: (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين) فيقول الصبي: إذ قلت بسم الله الرحمن الرحيم، أقول: والحمد لله للاتصال، وإذا لم أقل بسم الله، وبدأت قلت: الحمد لله (فعجبنا - أي ابن جبير - من أمره ومعرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله دون تعلم)^(٢).

فهؤلاء مع بداوتهم قد أفادوا الحركة العلمية اقتصادياً وعلمياً عن طريق فصاحتهم الفطرية الضاربة في أعماق البداوة زيادة على إخلاصهم في معتقداتهم، وقد أثنى عليهم النبي ﷺ فقال: (علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء). وروافد الحركة الاقتصادية كثيرة من الأمير عثمان بن علي الزنجيلي

(١) السرو اليمينيون: هم أهل السروات من بلاد اليمن، وهي جبال حصينة تعرف بالسراة، فاشتق الناس هذا الاسم من اسم بلادهم، وهم قبائل شتى، ويجلبون معهم الكثير من السمن والعسل وخلافه، وتجمع ميرتهم بين الطعام والفاكهة، وأهل الحجاز يعيشون في رغد من العيش بقدمهم، ويدخرون ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى، ولا يبيعون ما جلبوه، فهم به في تجارة مع الله تعالى، ذكر ابن جبير عنهم تفصيلاً ممتعاً من ص ١١٠ - ١١٣.

(٢) رحلة ابن جبير ص ١١٢، ١١٣، - رحلة ابن بطوطة ص ١٨٠ - ١٨١، - اتخاف الوري ج ٢ حوادث سنة ٥٧٩ هـ.

ومن الأمير طاشتكين بن عبدالله المقتفوي أمير الحج العراقي، وأمراء العجم الخراسانيين، ونساء معروفات بالخواتين^(١) كان منهن ثلاث ابنة الأمير مسعود ، ولها كثير من البر في طريق الحج والمشاعر ، والثانية أم عز الدين صاحب الموصل، والأخيرة ابنة الدقوس صاحب أصبهان وهؤلاء ، وأولئك حملوا معهم ما لا حصر له ، وجُلّه كان خدمة للعلم في طلابه وعلمائه^(٢) .

وقد شارك الأعاجم في هذه الحركة التي وسعت كل لسان نطق بالتوحيد ، ولم تفرق بين عرب ، أو عجم .

وقد أفاد ابن جبير بأنه رأى في وعظهم عجباً ، فبعد أداء المناسك في منتصف ذي الحجة سنة ٥٧٩هـ استقبلت الحركة من فوق منابرها أمام المقام الواعظ الخراساني الذي وصفه ابن جبير : (بأنه حسن الشارة مليح الإشارة) ، وأفاد بأن خطبته بليغة امتازت بسحر بيانها، وبراعة ألفاظها، وفصاحة ألفاظها الذي جمع بين اللسان العربي، واللسان الأعجمي مراعيًا مقام المستمعين بالترجمة الفورية التي أسعفته في قلب لسانه تارة بلغة الأعاجم ، وأخرى بلغة العربي الفصيح^(٣) .

وفي الليلة التي بعدها استقبلت واعظاً أعجمياً من فوق منبر آخر وصفه ابن جبير أيضاً : (بأنه شيخ أبيض السبال، رائع الجلال، بارع التمام في الفضل

(١) خاتون : بمنزلة السيدة، أو ما يليق بهذا اللفظ المملوكي النسائي للمزيد راجع رحلة ابن جبير ص ١٦٤.

(٢) للمزيد راجع نفس المصدر ص ١٤٨ - ١٤٩ ، - العقد الثمين ج ٦ ص ٣٤ - ٣٥ ، شفاء الغرام ج ١ ص ٣٢٨ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، وعن ترجمة طاشتكين راجع العقد الثمين ج ٥ ص ٥٧٢٨ رقم ١٤٢٨ .

(٣) رحلة ابن جبير السابقة ص ١٥٩ - ١٦٠ .

والكمال ..). فخطب بخطبة ألهمت أحاسيس العرب، والعجم، وحركت أفئدتهم خشية وخشوعاً من جلال موضوعها التي انتظمت آية الكرسي، وتناولها بالتفسير وبأسلوب وسع لغة الحاضرين ، فاقشعرت لسماعه الأبدان ، وتفاعل معه الجميع على اختلاف مستواهم الفكري ، وفي أثناء حديثه انهالت عليه الأسئلة من كل جانب، فكان جوابه سريعاً بليغاً كافياً شافياً حير قلوب سائليه، فكأنما هو على قول ابن جبير (وحيُّ يُوحى) ، دعانا ابن جبير أن نتعجب من دقتهم التي تجلت في شيخهم الواعظ حين قال : (سمعت هذا الشيخ الواعظ يسند الحديث إلى خمسة من أجداده جد عن جد نسقاً مسلسلاً من أبيه إليهم على اتصال ، كلهم له لقب يدل على منزله من العلم ..) (١) .

ومن مكة تواصل الحركة مسيرتها إلى المدينة المنورة ، وتلتقي في حرم رسول الله ﷺ مع بلاغة روادها نذكر منهم صدر الدين رئيس الشافعية الأصبهاني الذي ورث العلم أيضاً عن أجداده كابراً عن كابر .

وفي ليلة الجمعة أعد لرئيس العلماء المذكور كرسي إزاء الروضة الشريفة، وتميزت خطبته التي ألقاها بصدق العبارة ، وبكل لغة ، وفي أثناء خطبته لم تغب عنه ملاحظة الروضة حينما يأتي ذكر لصاحبها صلوات الله عليه يشير إلى روضته باكياً ويقول :

هاتيك روضته تفوح نسيماً : صلوا عليه وسلموا تسليماً ، وتعجب من حاله إمام المقام النبوي قائلاً : عجباً للألكن الأعجم كيف ينطق عند أفصح العرب ، وبعد عظاته التي طاشت لها أبواب الحاضرين تهافتت عليه الأعاجم

(١) نفس المصدر ص ١٥٩ - ١٦٠ .

بالتوبة إلى الله تعالى ، وكعادة ابن جبير في تعجبه إذ قال : (فما رأيت أكثر دموعاً ، ولا أكثر خشوعاً من تلك الليلة) ^(١) .

وبعد هذا العرض السريع نقرر أن علماء مواسم الحج قد أكدوا ازدهار الحركة العلمية، ومن لم يساهم في ازدهارها بعلمه فقد أسهم بمساعداته المالية، أو العينية من حكام المسلمين وأهل الخير من أثريائهم - مَنْ ذكرناهم ومن لَمْ نذكرهم - . ولا نجانب الصواب إذا قلنا بأن أكثرهم قد عاد إلى بلاده هائناً بما حصله من معارف ، وخبرات قلما توفرت في بلادهم ، أو ضَمَّتْها جوانبُ حضارتهم ، ولا شك أن هذه الذكرى كثيراً ما كانت تعايشهم في بلادهم فيعاودون الكرة مرة ، بل ومرات ومرات - كما مر بنا - لمضاعفة ثوابهم في أرض أنعم الله عليها بمضاعفة أجر من أحسن عملاً ... وبعد .

فأسأل الله تعالى التوفيق وحسن السداد فيما قدمت .

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

المصادر

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : المصادر والمراجع .

(١) نفس المصدر ص ١٧٧ - ١٧٩ ، ذكره في الصفحة الأولى أن الخطبة كانت ليلة الجمعة ٧ من محرم سنة ٥٨٠هـ ، في الثانية ذكر أن الخطبة مع بلاغتها لم تخل من البدع منها قوله: (حاجتي أن تكشفوا رؤوسكم ، وتيسطوا أيديكم ضارعين لهذا النبي ﷺ في أن يرضى غني ويسترضي الله عز وجل لي) وفي الصفحة الأخيرة كانت خطبة الجمعة من خطيب آخر يقول عنه ابن جبير (على مذهب غير مرضي) ومفهوم أنه على مذهب الإمامية الشيعية، وعموماً فخطبته كلها غير خالية من البدع - إلى حد كبير انصرف عنه الناس يائسين متحقيقين من علامات الساعة (أيضاً ص ١٨٠ من نفس المصدر) .

- * - ابن الإخوه ، محمد بن محمد - ت ٧٢٩ هـ .
- (١) "معالم القربة في أحكام الحسبه" - تحقيق : محمد محمود شعبان صديق المطيعي ، الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - ١٩٧٦ م .
- * - أمين ، أحمد .
- (٢) ظهر الإسلام الجزء الثالث - مطبعة لجنة التأليف والتراجم - القاهرة الطبعة الثانية - ١٩٥٩ م .
- * - الأهواني ، أحمد .
- (٣) التربية في الإسلام ، وملحق به الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين ، وأحكام المعلمين والمتعلمين لأبي الحسن القاسبي ، وآداب المعلمين لابن سحنون - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٠ م .
- * البتنوني ، محمد لبيب .
- (٤) الرحلة الحجازية - مطبعة الجمالية - مصر - الطبعة الثانية - ١٣٢٦ هـ .
- * - ابن بطوطة ، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم - ت ٧٧٩ هـ -
- (٥) رحلته - بيروت - ١٤٠٠ ، طبعة دار التراث - بيروت ١٣٨٨ هـ ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - تحقيق: طلال حرب - ١٤١٣ .
- * - بكر ، سيد .
- (٦) الملامح الجغرافية لدروب الحجيج - الكتاب الجامعي رقم (٦) - تهامة - جدة - ١٤٠٢ هـ .
- * - التجيبي ، يوسف - ت ٧٣٠ هـ -
- (٧) مستفاد الرحلة والاغتراب - تحقيق : عبدالحافظ منصور - ليبيا - تونس -
- الدار العربية للكتاب - ١٣٩٥ هـ .

- * - ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن - ت ٨٧٤هـ -
(٨) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السادس - نسخة مصورة
عن طبعة دار الكتب - وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية
العامّة للكتاب والتراجم والنشر .
- * - ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد - ت ٦١٤هـ - .
(٩) رحلته - دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - مطبعة السعادة -
القاهرة - ١٣٢٦هـ ، طبعة بيروت ١٣٩٩هـ .
- * - الجزيري ، عبدالقادر محمد بن عبدالقادر - ت ٩٧٧هـ - .
(١٠) درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة - المطبعة
السلفية بالقاهرة سنة ١٩٨٤ ، طبعة منشورات دار اليمامة - الجزء الأول
- تحقيق : حمد الجاسر - الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ .
- * - الجوهري ، إسماعيل بن حماد - ٢٩٣هـ - تحقيق : أحمد عطار .
(١١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية - الجزء الأول والسادس - مطبوع
بالقاهرة ١٣٧٦هـ على نفقة المحسن معالي السيد حسن الشريتلي ،
وأعيد طبعه بالقاهرة ١٣٩٩هـ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٢هـ .
- * - الحموي ، ياقوت بن عبدالله - ت ٦٢٦هـ .
(١٢) معجم البلدان - الجزء الثاني - دار صادر للطباعة والنشر - دار بيروت
للطباعة والنشر - بيروت ١٣٧٦هـ .
- * - ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد - ٨٠٨هـ - .
(١٣) المقدمة - كتاب الشعب - دار الشعب - القاهرة ، مطبعة دار الجيل
بيروت .

- * - الذهبي ، أبو عبدالله شمس الدين - ت ٧٣٨ هـ - .
- (١٤) العبر في خبر من غبر - الجزء الثالث - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- (١٥) تذكرة الحفاظ - الجزء الثاني - صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالمية الهندية .
- * - الرشيدى ، أحمد .
- (١٦) حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج - كتابه المقدمة والحواش : ليلى عبداللطيف - مكتبة الخانجي - مصر ١٩٨٠ م .
- * - الزركلي ، خير الدين .
- (١٧) الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين - الجزء الرابع - الطبعة الثانية - دار العلم للملايين .
- * - السليمان ، علي بن حسين .
- (١٨) العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك - القاهرة - طباعة الشركة المتحدة للنشر والتوزيع سنة ١٣٩٣ هـ .
- * - السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن - ت ٩١١ هـ .
- (١٩) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - الجزء الأول - تحقيق : محمد أبو الفضل - دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى ، القاهرة - ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م .
- * - أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن - ت ٦٦٥ هـ - .
- (٢٠) الروضتين في أخبار الدولتين - الجزء الأول - دار الجيل - بيروت ، مطبعة دار النبل بمصر ١٣٨٧ - ١٣٨٨ هـ .
- (٢١) الذيل على الروضتين - بيروت - دار الجيل - الطبعة الثانية - ١٩٧٤ م .

- * - صبري ، عبدالعزيز .
(٢٢) تذكّار الحج - خاطرات ومشاهدات في الحج - المطبعة السلفية - القاهرة
- ١٣٤٢ هـ .
- * - ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد جار الله - ت ٩٨٦ هـ - .
(٢٣) الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف - بيروت - المكتبة
الشعبية - الطبعة الخامسة - ١٣٩٩ هـ .
- * - ابن العماد ، عبدالحلي الحنبلي - ت ١٠٨٩ هـ - .
(٢٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - الجزء الرابع والخامس - دار بيان
المسيرة - بيروت - ١٣٩٩ هـ .
- * - عنقاوي ، فؤاد .
(٢٥) مكة .. الحج والطواف - دار خضر - بيروت - ١٤١٥ هـ .
- * - الفاسي ، محمد بن أحمد - ت ٨٣٢ هـ -
(٢٦) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين الأجزاء - ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ ما
عدا الأول تحقيق : فؤاد سيد - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٣٨١ هـ -
١٣٨٨ هـ .
- (٢٧) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام - الجزء الأول - ملحق به كتاب الدرة
الثمينة لابن النجار - ت ٦٦٥ هـ - مطبعة البابي الحلبي ١٩٥٦ م .
- * - ابن فهد ، عز الدين عبدالعزيز - ت ٩٢٢ هـ - .
(٢٨) غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام - الجزء الأول - تحقيق فهم
شلتوت - مطبوعات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى - مكة سنة
١٤٠٤ هـ .

- * - ابن فهد ، عمر - ت ٨٨٥هـ .
- (٢٩) اتحاف الورى بأخبار أم القرى - الجزء الثاني والثالث - تحقيق : فهم شلتوت - مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى - مكة ١٤٠٤هـ .
- * - القاسمي ، ظافر .
- (٣٠) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي - الجزء الثاني - دار النفائس - بيروت - الطبعة الأولى - ١٣٩٤هـ .
- * - ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ - ت ٧٧٤هـ .
- (٣١) البداية والنهاية - الجزء الثاني عشر - مكتبة دار المعارف ١٤١٢هـ ، الجزء الثالث عشر - دار الفكر - بيروت - ١٣٩٨هـ .
- * - الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري - ت ٤٥٠هـ .
- (٣٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية - راجعه : محمد فهمي السرحاني - المكتبة التوفيقية - القاهرة سنة ١٩٧٨م .
- * - مالكي ، سليمان .
- (٣٣) بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري - مطبعة دار الأوفست بالرياض سنة ١٤١٤هـ .
- * - محمود ، عبدالحليم .
- (٣٤) الحج إلى بيت الله الحرام (المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور) - دار الكتاب اللبناني - ١٩٧٧م .
- * - ابن منظور ، جمال الدين محمد - ت ٦٣٠هـ .
- (٣٥) لسان العرب - الجزء العشرون - (تراثنا) طبعة مصورة عن طبعة بولاق - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء - الدار المصرية للتأليف والترجمة.